سعة علمه ﷺ وكثرة علومه
التي لا يحصيها إلا الله تعالى
الذي أفاضها عليه

الإمام الشيخ
عبد الله سراج الدين
رحمه الله تعالى ورضي عنه

هذا البحث مقتبس من كتاب
(سيدنا محمد رسول الله
صلى الله عليه وآله وسلم)
من الصفحة ١٣٠ حتى الصفحة ١٦٦

للشيخ الإمام
عبد الله سراج الدين الحسيني
بناءً على توجيهات ولده
المهندس الشيخ
محمد محيي الدين سراج الدين
رحمهما الله تعالى ورضي عنهما

ويمكنك تحميل هذه الأبحاث القيّمة
وتحميل جميع كتب الشيخ الإمام
من موقعه الرسمي والوحيد
WWW.SRAJALDEN.COM
قسم: كتب الإمام
تحميل كتب الإمام وتحميل أبحاث مختارة

مدير الموقع:
الشيخ عبد الله محمد محيي الدين سراج الدين

سعة علمه ﷺ وكثرة علومه التي لا يُحصيها إلا الله تعالى الذي أفاضها عليه

كان رسول الله ﷺ واسعَ العلم ، عظيمَ الفهم ، أفاض الله تعالى عليه العلوم النافعة الكثيرة ، والمعارف العالية الوفيرة ، وقد أعلن

(١) قال الحافظ ابن كثير : رواه أبو يعلى في كتاب : (معرفة الصحابة) .

سبحانه وتعالى بسعة علمه ﷺ ، وأعلم بعظيم فضله ، فقال سبحانه : ﴿ وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلَّمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً ﴾ .

فهو ﷺ أعلمُ خلق الله تعالى ، وأعرفهم بالله تعالى ، كما ورد في (الصحيحين) أنه ﷺ قال : « إن أتقاكم وأعلمَكم بالله أنا » .

وفي رواية الأصيلي « أنا أعرفكم بالله » .

ومن تدبَّر في تعاليم الله تعالى لرسله وأنبيائه صلوات الله تعالى عليهم ، الواردة في القرآن الكريم ، يتضح له جلياً أن سيدنا محمداً ﷺ قد علَّمه الله تعالى علوماً هي أكثر وأوفر وأجمع وأعمّ ، وذلك لأنه سبحانه قال : ﴿ وعلمّك ما لم تكن تعلم ﴾ ، فجيء بـ ﴿ ما ﴾ التي هي للعموم والشمول ، لتعمَّ جميع العلوم التي علَّمها الله تعالى لرسله وأنبيائه ، ولتشمل غيرها من العلوم التي أفاضها الله سبحانه عليه .

روى الحافظ أبو بكر بن عائذ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : لما وُلد النبي ﷺ قال في أُذنه رضوان خازن الجنان : (أبشر يا محمد ! فما بقي لنبيٍّ علم إلا وقد أُعطيتَه ، فأنت أكثرهم علماً وأشجعهم قلباً)(١) .

وجاء في (الصحيحين) واللفظ لمسلم عن أنس رضي الله عنه أن

(١) أورد ذلك العلامة القسطلاني في (المواهب) ، نقلا عن الشيخ بدر الدين الزركشي ، قال الحافظ الزرقاني : وهذا أرسله ابن عباس ، ومرسل الصحابي وصل في الأصل ، وحكمه الرفع ، إذ لا مجال فيه للرأي . اهـ .

الناس سألوا نبيَّ الله ﷺ حتى أحْفَوْه بالمسألة - أي : أكثروا عليه الأسئلة - فخرج ذات يوم فصعِد المِنبر فقال : « سلوني - لا تسألوني عن شيء إلا بيَّنتُه لكم » - .

وفي رواية : « إلّا أخبرتكم به ما دمتُ في مقامي هذا » .

فلما سمع القوم أرَمُّوا - أي : سكتوا - ورهبوا - أي : خافوا - أن يكون بين يدي أمر قد حضر ، فجعلت أَلتفتُ يميناً وشمالاً فإذا كلُّ رجلٍ لاف رأسَه في ثوبه يبكي ، فأنشأ رجل من المسجد كان يُلاحَى فيُدعى لغير أبيه ، فقال : يا نبيَّ الله من أبي ؟ قال : « أبوك حذافة » .

ثم أنشأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : رضينا بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد رسولاً ، عائذاً بالله من سوء الفتن .

فقال رسول الله ﷺ : « لم أرَ كاليوم قطُّ في الخير والشر ، إني صُوِّرتْ لي الجنةُ والنارُ فرأيتُهما دون هذا الحائط » .

فليعتبر المعتبر في قوله ﷺ: « لا تسألوني عن شيء إلا بيَّنته لكُم » .

ومع هذا كله فقد أمره الله تعالى أن يسأله الزيادة في العلم دائماً أبداً ، قال تعالى : ﴿ وقل ربِّ زِدْني علماً ﴾ .

ولم يأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يسأله الزيادة من شيء إلا الزيادة من العلم .

فلذلك كان ﷺ يدأب في دعائه بزيادة العلم ليله ونهاره ، فإذا استيقظ في الليل قال : « لا إله إلا أنت ، سبحانك اللهم وبحمدك ،

استغفرك اللهم لذنبي وأسألك رحمتك ، اللهم زدني علماً ، ولا تُزِغْ قلبي بعد إذ هديتَني ، وهبْ لي من لدنك رحمةً ، إنك أنت الوهاب » كما في صحيح مسلم وغيره .

وروى الترمذيُّ وابن ماجه بسند حسن عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ دعافقال : « اللهم انفعني بما علَّمتَني ، وعلّمني ما ينفعني ، وزدْني علماً ، والحمد لله على كل حالٍ ، وأعوذ بالله من حال أهل النار » .

كما وأنه ﷺ دائم الترقي في العلوم والمعارف الإلهية ، تتوارد عليه الفيوضات الآلهية والفتوحات الربانية ، كما جاء في صحيح مسلم عن عياض بن حمار المجاشعي أن رسول الله ﷺ قال : « إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني في يومي هذا . . » الحديث .

ففي كل يوم يُفيض الله تعالى علوماً ومعارف ، وقد أمره الله تعالى أن يُعلِّم الناس من بعض تلك العلوم المفاضة عليه ، حسب ما يحتاجون ويتحمَّلُون ويستعدُّون على الوجه الذي أمره الله تعالى به .

هذا ، وإن أحداً من خلق الله تعالى لا يستطيع أن يُحيط بأبواب علوم رسول الله ﷺ ، ولا بأنواعها بل ولا أجناسها ، لا يُحيط بذلك إلا الله تعالى الذي أفاض عليه جميع ذلك .

وإنني أذكر بعض الوجوه من الحجج الدالة على سعة علمه ﷺ وكثرة علومه ، ليتعلم الجاهل ، وليتنبه الغافل ، وليزداد إيمان المؤمن الكامل ، بهذا الرسول الكريم ﷺ .

الدليل الأول : هذا القرآن الكريم الذي أقرأه الله تعالى إيَّاه ،

وجمعه له في صدره الشريف ، وعلَّمه إيَّاه ، وبينَّه له ، وأمره بتبيانه للناس ، وكشف له عن حقائقه القرآنية والفرقانية ، وعن معانيه وأسراره وأنواره ، وظاهره وباطنه .

قال الله تعالى : ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من عَلَق . اقرأ وربُّك الأكرم . الذي علَّم بالقلم . علم الإنسان مَا لم يعلم ﴾ .

وهذه الآيات الخمسة هي فاتحة نزول القرآن على النبي ﷺ جاءه بها جبريل عليه السلام ليلة نبوَّته .

كما ورد في (الصحيحين) عن عائشة رضي الله عنها قالت : (أوَّلُ ما بُدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثلَ فَلَق الصبح ، ثم حُبِّب إليه الخلاء ، فكان يخلو بغار حِراء فَيَتَحنَّث فيه ـ وهو التعبُّد ـ الليالِيَ ذواتِ العدد ، وكان يتزوَّدُ لذلك حتى جاءه الحق وهو بغار حِراء ، فجاءه الملك فقال له : اقرأ ، فقال : « ما أنا بقارىء » .

قال : فأخذني فغطَّني حتى بلغ مني الجَهد ، ثم أرسلني ، فقال : اقرأ ، فقلتُ : ما أنا بقارىء .

قال : فأخذني فغطَّني الثانية حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني ، فقال : اقرأ ، فقلتُ : ما أنا بقارىء

قال : فأخذني فغطني الثالثة ، ثم أرسلني ، فقال : ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذي علَّم بالقلم ، علَّم الإنسان ما لم يعلم ﴾ . . .) الحديث .

فهذا جبريل عليه السلام يأتي رسول الله ﷺ بالقرآن الكريم ، ويقول له : اقرأ ، فيقول : ما أنا بقارىء ، أي : لأنه نشأ أُمياً لم يتعلم القراءة ولا الكتابة ، فهنا يقول جبريل عليه السلام ثلاث مرات : اقرأ ، ثم يضمه إليه بعد كل قَوْلة ضمةً قوية ، وذلك ليفيض عليه ما أوحاه الله تعالى إليه ، من المعاني والأسرار والأنوار ، المنوطة في الجسم والقلب والروح ، ثم يقول له : ﴿ اقرا باسم ربك ﴾ يعني : أنت اقرأ باسم ربك ، لا بدراستك ولا ثقافتك ، لأنك ليس لك سابقة دراسة ولا تعلُّم ، وبهذا يصبح رسول الله ﷺ قارئاً عالماً ، يتلو كلام الله تعالى بعد أن مضتْ عليه أربعون سنة لم يأتِ قومه بآية ؛ وفي هذا برهان قاطع ، ودليل ساطع أن محمداً رسول الله ناطق بالوحي عن الله تعالى .

قال الله تعالى : ﴿ قل : لو شاء الله ما تلوْتُه عليكم ، ، ولا أدراكم به ، فقد لبثتُ فيكم عُمُراً من قبله ، أفلا تعقلون ﴾ ؟!.

يعني أن من تَعقَّل أمر سيدنا محمد ﷺ أيقن أنه رسول الله حقاً ، لا يحتمل أمره غير ذلك ، وأن قضيَّتَه ليست من باب العبقرية ، ولا من باب الفهم والذكاء ، وإنما قضيتُه أنه رسولٌ يوحي الله تعالى إليه .

بل إنه سبحانه وتعالى أبطل مزاعم المنكرين لنبوَّة سيدنا محمد ﷺ ، الذين ادَّعَوْا أن ما جاء به من الهدى والعلم والرشاد ، هو من باب الثقافة والحصافة ، أو من باب فرط الذكاء ، وجَوْدة العبقري ، أبطل جميع تلك المزاعم بأنه أُمي لم يتعلم قراءةً ولا كتابة ، ولم يستمع إلى

معلِّم ، فقال تعالى : ﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تَخُطُّه بيمينك ـ إذاً لارتاب المبطلون ﴾ .

ولما اتَّهمه أعداؤه بأنه ﷺ كان يستمع إلى بعض الموالي من العجم ، فجاء بما جاء ، ردَّ عليهم سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ ولقد نعلم أنهم يقولون : إنما يعلمه بشر ﴾ ، أي : وهو غلام مملوك لبعض بطون قريش ، وكان أعجمياً ، فقال تعالى : ﴿ لسانُ الذي يُلحدون إليه : أعجمي ، وهذا لسان عربي مبين ﴾ ! .

والمعنى أن هذا المملوك الذي زعموا أن الرسول ﷺ أخذ عنه : هو أعجمي اللسان ، عديمُ البيان ، وقد جاءهم رسول الله ﷺ بهذا القرآن العربي المبين ، فكيف يُتصور في العقل أن يكون هذا القرآن العربي المبين من هذا الرجل الأعجمي الذي لا يَبين ؟! .

فلم يأت رسول الله ﷺ بهذا القرآن من تلقاء نفسه ، ولا من مخلوق آخر لعجزهم عن الاتيان بمثله ، وإنما هو من عند رب العالمين .

قال الله تعالى : ﴿ الرحمن . علَّم القرآنَ . خلق الإنسان ، علمَّه البيان ﴾ .

أوَّل إنسان علَّمه الرحمنُ القرآنَ : هو سيدُ ولدِ آدم محمد ﷺ وعنه تلقَّتِ الناسُ القرآن وتعلموه منه .

كما وأنه ﷺ هو أول من علمه الله البيانَ عن معاني القرآن .

فهو سبحانه علَّم رسوله ﷺ القرآن : تلاوةَ نصِّه ومعانيَه ، وحِكَمه ومعارفه وأسراره ، وإشاراته وخصائصه .

قال تعالى : ﴿ سنُقرئك فلا تنسى ﴾ وقال : ﴿ لا تحرِّك به لسانك لتعجلَ به إنَّ علينا جمعه وقرآنه ، فإذا قرأناه فاتَّبعْ قرآنه ، ثم إن علينا بيانَه ﴾ .

والمعنى : إن علينا يا محمد ﷺ أن نجمع لك هذا القرآن في صدرك ، وعلينا إثباتَ قراءته في لسانك ، فلا تعجل بالقرآن قبل أن يَتمَّ وحيه لتأخذه على عجل مخافة أن يتفلَّتَ منك .

فهو سبحانه الذي جمع له القرآن في صدره ، وأقرأه إياه بلسانه ، ثم تكفلَّ له ببيانه ، فقال : ﴿ إن علينا بيانه ﴾ أي : بيان معانيه وأحكامه ، وأوامره ونواهيه .

ومن ذلك : تعليمُ الله تعالى للنبي ﷺ خصائصَ الكلمات القرآنية ، كما يدل عليه الحديث الذي رواه أبو داود والترمذي من حديث الثوري ، عن أبي إسحاق ، عن المهلَّب بن أبي صُفرة ، قال : حدثني من سمع رسول الله ﷺ يقول : « إنْ بُيِّتُم الليلة ـ وفي رواية : إن بَيَّتكم العدوُّ ـ فقولوا : حم لا ينصرون »[1] .

ومن ذلك : علمه ﷺ بخصائص الآيات القرآنية ، كما ورد في آخر سورة البقرة ، ففي الترمذي عن النعمان بن بشير عن النبي ﷺ قال : « إن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق السموات والأرضَ بألفَيْ عام ، أنزل منه

---

(١) وذلك أنهم كانوا في بعض الغزوات ، فقال لهم ذلك ﷺ . قال الحافظ ابن كثير : وهذا إسناد صحيح ، واختار أبو عبيد أن يروى : فقولوا حم لا ينصرون ، أي : إن قلتم ذلك لا ينصروا . اهـ وذلك دليل أن في « حم » حماية .

آيتين ختم بهما سورة البقرة ، ولا يُقرأ بهنَّ في دارٍ ثلاثَ ليالٍ فيقربَها شيطان »[1] .

ومن ذلك : ما ورد في خصائص العشر الآيات من أول سورة الكهف وآخرها ، وأنها عصمة من الدّجال ، ففي (مسند) أحمد عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عُصم من الدَّجال »[2] .

وروى الإمام أحمد عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال : « من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف عُصم من فتنة الدجال »[3] .

وفي (المختارة) للحافظ الضياء المقدسي عن علي بن الحسين ، عن أبيه عن علي مرفوعاً : « من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة فهو معصوم إلى ثمانية أيام من كُل فتنة ، وإنْ خرج الدجال عُصم منه »[4] .

وكما ورد في آيات أول سورة يس ، فقد روى ابن إسحاق وغيره (أن النبي ﷺ حين رَقَبه المشركون ليلة الهجرة ، خرج عليهم وفي يده

---

(١) قال الترمذي : حديث غريب ، ورواه الحاكم في (المستدرك) وقال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه .

(٢) قال الحافظ ابن كثير : ورواه مسلم وأبو داود والنسائي والترمذي من حديث قتادة به ، ولفظ الترمذي « من حفظ ثلاث آيات من أول الكهف » وقال : حسن صحيح . اهـ .

(٣) قال ابن كثير : ورواه مسلم أيضاً والنسائي من حديث قتادة به ، وفي لفظ النسائي : « من قرأ عشر آيات من الكهف . . » فذكر الحديث . اهـ .

(٤) انظر تفسير ابن كثير ، وأصل هذا الحديث في (المسند) وغيره .

حفنة من تراب فجعل يذرُّها على رؤوسهم ويقرأ : ﴿ يس . والقرآن الحكيم ﴾ حتى انتهى إلى قوله تعالى : ﴿ وجعلنا من بين أيديهم سدًّاً ، ومن خلفهم سدّاً ، فأغشيناهم فهم لا يبصرون ﴾ ، وانطلق رسول الله ﷺ وباتوا رُصَداء على بابه) ثم جعل كل رجل منهم ينفض التراب عن رأسه ، وحال الله تعالى بينهم وبين رسوله ﷺ ولم يروه حين خرج من بينهم .

وهذا باب واسع جداً وليس موضع تفصيله هنا .

ومن ذلك : علمه ﷺ بخصائص السور ، كما يدل على ذلك ما ورد في سورة يس ، وأنها قلب القرآن ، وأن لها الخصائص الكثيرة ، وسورة الدخان ، وأن من قرأها في ليلةٍ أصبح مغفوراً له ، وسورة تبارك ، ووقايتها من عذاب القبر ، وسورة البقرة وبركاتها ، وسُوَر المعوِّذات وحصاناتها لقارئها ، وغير ذلك مما ثبت في الأحاديث النبوية (١) فإن ذلك يدلنا على أن له ﷺ علماً كبيراً واسعاً بخصائِص الحروف القرآنية والآيات والسُّور .

فسبحان الفتاح العليم الذي فتح له وعلمه ﷺ .

ومن ذلك : علمه ﷺ بإشارات القرآن الكريم الخفيّة ، فوق العبارات الجلية ، يدل على ذلك ما رواه الإمام أحمد في (المسند) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما نزلتْ ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ علم النبي ﷺ أنْ قد نعيتْ إليه نفسه .

---

(١) وقد ذكرنا جانباً من ذلك في كتاب (تلاوة القرآن المجيد) فارجع إليه .

وفي رواية أيضاً عن ابن عباس قال : لما نزلت ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ قال رسول الله ﷺ : « نُعيَتْ إليَّ نفسي » فإنه مقبوض في تلك السنة .

وروى الإمام أحمد ـ وأصله في مسلم ـ عن عائشة رضي الله عنها قالت : (كان رسول الله ﷺ يُكثر في آخر أمره من قول : « سبحان الله وبحمده أستغفرالله وأتوب إليه » ، وقال : « إن ربي كان أخبرني أني سأرى علامة في أمتي ، وأمرني إذا رأيتُها أن أسبِّح بحمده وأستغفره إنه كان تواباً ، فقد رأيتُها ـ ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ » إلى تمام السورة) .

وإن علم رسول الله ﷺ بمعاني القرآن الكريم وخصائصه ، وحقائقه وإشاراته ودلالاته ، وأسراره ومضامينه ، إن علمه بذلك لا يعلم قدره ولا يحيط بكمية ما هنالك إلا الله تعالى الذي أفاض عليه ذلك ﷺ .

قال تعالى : ﴿ ما فرَّطنا في الكتاب من شيء ﴾

وقال سبحانه : ﴿ ونزَّلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدىً ورحمةً وبشرى للمسلمين ﴾ .

وفي الحديث عن ابن مسعود رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ قال : « أُنْزل القرآن على سبعة أحرف ، لكلّ حرفٍ منها ـ وفي رواية : لكل آية : ـ ظهر وبطن ، ولكل حرف حد ، ولكلِّ حدٍ مُطَّلَع » [1] .

---

(١) رواه الطبراني عن ابن مسعود ، ورواه البغوي في (شرح السنة) عن الحسن وابن مسعود مرفوعاً كما في (فيض القدير) على (الجامع الصغير) ، وعزاه =

وفي سنن الترمذي وغيره من حديث سيدنا علي رضي الله عنه عن النبي ﷺ في القرآن الكريم : « .. وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس فيه الألسنة ، ولا تشبع منه العلماء ، ولا يَخْلُق على كثرة الردِّ ، ولا تنقضي عجائبه .. » الحديث .

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس : « إن القرآن ذو شجون وفنون ، وظهور وبطون ، لا تنقضي عجائبه ، ولا تُبْلَغ غايته » .

وقال ابن مسعود : « من أراد علم الأولين والآخرين فلْيتلُ القرآن » [1] .

فالقرآن الكريم بحر العلوم والمعارف ، جمعه الله تعالى لرسوله ﷺ بعلومه وحقائقه ، وقد قال ابن عم رسول الله ﷺ وصهره الكريم أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه : « لو تكلَّمت لكم على سورة الفاتحة لأوقرتُ سبعين جملاً » ـ فما ظنك بعلوم سيدنا رسول الله ﷺ ومفاهيمه القرآنية ؟! نعم إن جميع ما عرفه العارفون وتكلم به الوارثون

العلامة الزركشي في (البرهان) إلى (صحيح) ابن حبان . ومعنى قوله « ولكل حرف حد » أن لكل حرف منتهى فيما أراده الله تعالى من معناه ، ومعنى قوله « ولكل حد مطلع » أن لكل غامض من المعاني والأحكام مطلعاً يتوصل به إلى معرفته ويوقف على المراد به ، وظهره : ما ظهر تأويله ، وبطنه : ما خفي تفسيره . اهـ من شروح المناوي على (الجامع الصغير) .

(١) وروى سعيد بن منصور عن ابن مسعود أنه قال : (من أراد العلم فعليه بالقرآن ، فإن فيه خبر الأولين والآخرين) كما في (الإتقان) .

المحمديون ، إنما هو رشاشات من بحره ﷺ وقَبسات من أنواره ، وإشراقات من أسراره ﷺ .

وقد بحث العلماء والعرفاء في العلوم المستنبطة من القرآن الكريم ، فلم ينتهوا إلى استقصاء أصولها ، وإنما تكلم كل منهم على حسب علمه ، وقدر فهمه الذي أُعطيه ، ولكن بحر معاني القرآن وأسراره لا يتناهى .

وفي (الإتقان) وغيره عن القاضي أبي بكر بن العربي رحمه الله تعالى أنه قال في (قانون التأويل) : علوم القرآن : خمسون علماً ، وأربعمائة علمٍ ، وسبعة آلاف علمٍ وسبعون ألف علمٍ ، على عدد كَلم القرآن ، مضروبة في أربعةٍ ، إذ لكل كلمة ظهر وبطن ، وحدّ ومُطَّلَع ، وهذا مطلق ، دون اعتبار تركيبٍ وما بينها من روابط ، ففي هذا مالا يحصى ولا يعلمه إلا الله تعالى . اهـ .

وقال العلامة الراغب : إن الله تعالى كما جعل نبوة النبيين بنبيِّنا محمد ﷺ مختتمة ، وشرائعهم بشريعته من وجه منتَسِخَة ، ومن وجه مُكَمَّلة متَمَّمة ـ جعل كتابه المنزل عليه متضمّناً لثمرة كتُبه التي أوْلاها أولئك ، كما نبَّه عليه بقوله : ﴿ رسول من الله يتلو صُحُفاً مطهرة . فيها كتب قيِّمة ﴾ .

وجعل من معجزة هذا الكتاب أنه مع قلة الحجم ، متضمِّن للمعنى الجمِّ ، بحيث تقصُر الألباب البشرية عن إحصائه ، وتعجز الآلات الدنيوية عن استيفائه ، كما نبَّه عليه سبحانه بقوله : ﴿ ولو أنَّ ما في

الأرض من شجرةٍ أقلام ، والبحرُ يمدُّه من بعده سبعةُ أبحرٍ ما نفِدت كلماتُ الله ﴾ اهـ .

وقال العلامة الزركشي في (البرهان) : في القرآن الكريم علم الأولين والآخرين وما من شي إلا ويمكن استخراجه منه لمن فهَّمه الله تعالى ، حتى إن بعضهم استنبطَ عمُرَ النبي ﷺ ثلاثاً وستين سنة من قوله تعالى في سورة المنافقين : ﴿ ولن يُؤخِّرَ الله نفساً إذا جاءَ أجلُها ﴾ فإنها رأس ثلاث وستين سورة اهـ .

والبحث في علوم القرآن ومفاهيمه وإشارته ليس موضعه هنا ، وإنما ذكرنا منها نماذج موجزةً ، يُستَدلَّ بها على سعة علوم سيدنا رسول الله ﷺ ومعارفه القرآنية ، التي لا يحيط بأنواعها إلا الله تعالى الذي أفاضها عليه ﷺ .

الدليل الثاني : ومن الأدلة على سعة علمه وكثرة علومه ﷺ : الحكمةُ التي أنزلها الله تعالى عليه ؛ قال الله تعالى : ﴿ وأنزل اللهُ عليك الكتابَ والحكمةَ . . ﴾ الآية ، وقال تعالى : ﴿ واذْكُرْن ما يُتلى في بيوتِكُنَّ من آياتِ الله والحكمةِ ، إن الله كان لطيفاً خبيراً ﴾ .

والحكمة هي السنة الظاهرة في أفعاله ﷺ وأقواله ، وأحواله وإقراره ، كما نص على ذلك الإمام الشافعي رضي الله عنه في مواضع من كتبه ، وهو قول جمهور التابعين كالحسن البصري وقتادة ومقاتل بن حيان وغيرهم ـ كما نقل الحافظ ابن كثير ذلك عنهم ، عند قوله تعالى ﴿ وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة ﴾ .

وإنما سُميت السنة النبوية بالحكمة : لأن الحكمة تشتمل على سَداد القول ، وصواب العمل ، وإيقاع ذلك في مواقعه ، ووضعه في مواضعه اللائقة به ، ولا شك أن أقواله ﷺ وأفعاله ، وأحواله وإقراره ، جميع ذلك هو عين الحكمة .

كما أنه سبحانه سمى السنة النبوية بـ ﴿الميزان﴾ حيث قال سبحانه : ﴿ الله الذي أنزل الكتابَ بالحق والميزانَ ، وما يُدريك لعل الساعة قريب ﴾ فالميزان هنا المقرونُ بالكتاب : هو الحكمة المحمدية والسنة النبوية ، المقرونة بالكتاب في قوله تعالى : ﴿ وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة . . ﴾ الآية ، لأن القرآن يُفسِّر بعضه بعضاً .

وإنما سُميت السنةُ النبوية المشتملةُ على أقواله وأفعاله ﷺ وأحواله (ميزاناً) لأنها ميزان الأقوال والأفعال والأحوال ، بحيث يجب على الأمة أن تعرِض أقوالها وأفعالها وأحوالها على سنته ﷺ ، فما وافق الميزان فهو صحيح ورجيح ، ومقبول ونجيح ، وما خالف الميزان ـ أي : السنة ـ فهو قبيح ومردود على صاحبه ، كما روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال : « كل عملٍ ليس عليه أمرنا فهو رَد » .

وفي قوله تعالى : ﴿ وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة ﴾ دليل استدلَّ به كثير من العلماء المحققين ، على أن السنة نزلت بالوحي من عند الله تعالى ، كما دلَّ على ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ وما يَنطق عن الهوى . إنْ هو إلا وحيٌ يُوحى ﴾ ـ فإنَّ النطق أعمُّ من التلاوة ، فلم يقل سبحانه : وما يتلو ، أو : ما يقرأ عن الهوى ، حتى يقال إن ذلك خاصٌ بالقرآن الكريم ، بل قال سبحانه : ﴿ وما ينطق عن الهوى ﴾

أي : وما ينطق محمد رسول الله ﷺ بالقرآن والحديث عن الهوى ﴿ إنْ هو﴾ أي : ما نُطقه بذلك ﴿ إلَّا وحيٌ يُوحى ﴾ يوحيه الله تعالى إليه بنوع من أنواع الوحي .

وروى أبو داود والترمذي عن المقداد رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا إني أُوتيتُ الكتاب ومثله معه » ، والمراد بـ « مثله معه » : السنة ، كما ذكره جمهور كثير من العلماء ، فإن الله تعالى آتى رسوله ﷺ السنة النبوية كما آتاه الكتاب وهو القرآن العظيم .

وروى البيهقي في (المدخَل) بإسناده عن حسَّان بن عطية أنه قال : كان جبريل عليه السلام ينزل على رسول الله ﷺ بالسنة ، كما ينزل عليه بالقرآن ، يعلمه إيَّاها كما يعلمه القرآن[1] .

واستدلوا على ذلك أيضاً بما ورد في (الصحيحين) وغيرهما ـ واللفظ للبخاري ـ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أكثَرَ ما أخافُ عليكم ما يُخرِجُ الله لكم من بركات الأرض ـ وفي رواية : إن مما أخافُ عليكم ما يُفتحُ عليكم من زهرة الدنيا وزينتها » .

فقال رجل : هل يأتي الخير بالشر ؟

قال أبو سعيد : فصَمَتَ النبي ﷺ حتى ظننتُ ـ أي : عرفتُ ـ أنه ﷺ

---

(١) انظر (شرح الطريقة المحمدية) للعارف الكبير الشيخ النابلسي رضي الله عنه .

يُنزَل عليه ـ وفي رواية : فظننا أنه ينزل عليه ـ أي : ينزل عليه الوحي ـ ثم جعل يمسح رسول الله ﷺ عن جبينه [١] .

فقال : « أين السائل ؟ » فقال : أنا .

فقال ﷺ : « لا يأتي الخير إلا بالخير [٢] ـ وفي رواية : إنه لا يأتي الخير بالشرّ ـ إن هذا المالَ خَضِرةٌ حُلوة ، وإن كلَّ ما أنبتَ الربيع [٣] يقتُل حَبَطاً أو يُلمُّ ، إلا آكلةَ الخضرة ، أكلتْ حتى إذا امتدَّتْ خاصرتاها استقبلت الشمسَ فاجترَّتْ وثَلَطتْ وبالتْ ، ثم عادتْ فأكلت ، وإن هذا المال حلوة ، من أخذه بحقِّه ووضعه في حقه ، فنِعْم المعونة هو ، ومن أخذه بغير حقِّه كان كالذي يأكل ولا يشبع » .

فاستدل كثير من العلماء بهذا الحديث على أن الحديث النبوي هو نازل بالوحي من عند الله تعالى .

---

(١) أي : يمسح العرق ، كما جاء في رواية الدارقطني ، وجرى ذلك على عادته ﷺ عندما يوحى إليه ، حيث يتفصد جبينه الشريف عرقاً ، ولذلك أيقنت الصحابة أنه الوحي .

(٢) وفي رواية الدارقطني : كررها ثلاث مرات .

(٣) وفي رواية : « وإن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطاً أو يلم » أما الحبط : (فهو انتفاخ البطن من كثرة الأكل) وأما قوله : (أو يلم) ـ بضم أوله ـ فمعناه يقرب من الهلاك ـ وهذا مثال ضربه رسول الله ﷺ لمن تهافت على الدنيا ومالها ، وعمي بها عن دينه وآخرته ، وجمع ومنع ، ولم يعرف حق الله تعالى في هذا المال ، حتى بطر وفجر ، ومثال لمن أخذ هذا المال من الدنيا بحقه ووضعه في حقه وأدى حقوقه الواجبة عليه ، ولم يشغله ذلك عن دينه ، ولم يتعام بذلك عن آخرته ، فنعم الرجل ! .

كما استدلوا على ذلك أيضاً بما رواه البخاري وغيره أن يَعْلى بن أُمية قال لعمر رضي الله عنه : أرِني النبي ﷺ حين يُوحَى إليه ، قال : فبينما النبي ﷺ بالجعْرانة ، ومعه نفر من أصحابه ، جاءه رجل فقال : يا رسول الله كيف ترى في رجل أحرم بعمرة وهو متضمِّخ بطيب ؟ .

فسكت النبي ﷺ ساعةً فجاءه الوحي ، فأشار عمر إلى يعلى رضي الله عنهما ، فجاء يعلى وعلى رسول الله ﷺ ثوب قد أُظِلَّ به ، فأدخل - يعلى - رأسَه فإذا رسول الله ﷺ مُحْمرُّ الوجه ، وهو يغِطُّ ، ثم سُرِّي عنه ، فقال : « أين الذي سأل عن العمرة ؟ » فأُتي بالرجل ، فقال : « اغسِل الطيبَ الذي بك ثلاث مرات وانزِعْ عنك الجبَّة ، واصنَعْ في عمرتك ما تصنعُ في حجتك » .

الدليل الثالث : ومن الأدلة على كثرة علومه ﷺ : إظهارهُ ﷺ على المغيّبات .

فمن علومه ﷺ إظهار الله تعالى له على كثير من المغيَّبات ، قال الله تعالى : ﴿ عالمُ الغيب فلا يُظهرُ على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول فإنه يَسلُك من بين يديه ومن خلْفه رَصَداً ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وإذْ أسرَّ النبي إلى بعض أزواجه حديثاً فلما نبَّأَتْ به وأظهره الله عليه : عرَّفَ بعضَه وأعرض عن بعض . فلما نبَّأها به قالت : من أنبأك هذا ؟ قال : نبأنيَ العليمُ الخبير ﴾ .

واطِّلاعه ﷺ على المغيَّبات هو على وجوه متعددة نذكر أطرافاً منها :

الوجه الأول : إطلاعه ﷺ على بدء الخلق ، حتى دخل أهلُ الجنةِ

الجنةَ ، وأهلُ النارِ النارَ ، كما دلَّ عليه ما رواه البخاري عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : (قام فينا رسول الله ﷺ مقاماً ، فأخبَرنا عن بدء الخلق حتى دخل أهل الجنةِ الجنةَ ، وأهل النارِ النارَ ، حفِظه مَن حفظه ، ونسيه مَن نسيه) .

وفي (الصحيحين) عن حذيفة رضي الله عنه قال : (قام رسول الله ﷺ فينا مقاماً ، ما ترك فيه شيئاً إلى قيام الساعة إلاَّ ذكره ، علمه مَن علمه وجَهِله من جهله) .

قال حذيفة : وقد كنتُ أرى الشيء قد كنتُ نسيتُه فأعرِفه كما يعرف الرجل الرجلَ إذا غاب فرآه فعرفه .

كما أخبر ﷺ عما هو كائن بعده إلى يوم القيامة ، ففي (صحيح) مسلم عن عمرو بن أخْطَب الأنصاري رضي الله عنه قال : (صلَّى بنا رسول الله ﷺ يوماً الفجر وصعِد المنبر ، فخطبنا حتى حضرت الظهرُ ، فنزل فصلى ، ثم صعد المنبر ، فخطبنا حتى حضرت العصر ، فنزل فصلَّى ، ثم صعد المنبر ، فخطبنا حتى غربت الشمس ، فأخبرنا بما هو كائن إلى يوم القيامة ، فأعلمُنا أحفظُنا) .

فما ترك أمراً يكون إلى يوم القيامة إلا أخبر عنه ﷺ .

وروى أبو داود عن حذيفة رضي الله عنه قال : (والله ما أدري أنسيَ أصحابي أم تناسَوْا ؟ والله ما ترك رسول الله ﷺ من قائد فتنةٍ إلى أن تنقضي الدنيا يبلُغ مَن معه ثلثمائةٍ فصاعداً إلاَّ سمَّاه لنا : باسمه واسم أبيه واسم قبيلته) .

كما أنه ﷺ أخبر عن جميع أشراط الساعة الصغرى والوسطى والكبرى ، وأخبر عن أحوال الآخرة وبرازخها ، وأحوال أهل الجنة ، وأحوال أهل النار ، وتفاصيل أمورهم كلها ، كما هو مبيَّن في كتب السنة ، وفي هذا دليل على سعة العلوم التي أفاضها الله تعالى عليه ﷺ .

الوجه الثاني : إطلاعه ﷺ على العوالم ، كما صحَّ في أحاديث المعراجِ من أنه ﷺ عُرج به إلى السموات السبع ودخلها ، واحدةً واحدةً ، ورأى فيها ما رأى ، واجتمع مع الرسل عليهم الصلاة والسلام ، ثم عُرج به إلى سِدرة المنتهى ، ورأى أياتِها وعجائبَها ، والتجليات المتواردة عليها ، ثم إلى مستوىً سمع فيه صَريفَ الأقلام ، إلى ما هنالك من العوالم العلويَّة .

كما أنه ﷺ أطلعه الله تعالى على عالم العرش ، بدليل أنه ﷺ بيَّن سعةَ العرش ، وأنه أوسعُ العوالم ، فعن أبي ذر رضي الله عنه أنه سأل النبي ﷺ عن الكرسي ؟ فقال رسول الله ﷺ : « والذي نفسي بيده ما السموات السبعُ والأرضون السبع عند الكرسي إلَّا كحلْقةٍ مُلْقاةٍ في أرض فلاةٍ ، وإن فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلْقة » (١) .

كما أنه ﷺ تكلَّم عن العرش وأن له قناديل ، وهي العوالم العرشية ، وأن له الظلالَ ، وأن له القوائم ، وأن له الكنوز كما في

---

(١) رواه ابن مردويه ، وكذلك روى نحوه ابن جرير وغيره ، كما في (تفسير الحافظ ابن كثير .

(الصحيحين) : « . . فإذا موسى آخِذٌ بقائمة من قوائم العرش » .

وتحدَّث ﷺ عن حَمَلة العرش ، وعن قوة حملة العرش وعِظَمهنَّ ، كما ورد في (المسند) أن النبي ﷺ قال : « أنا محمدٌ النبي الأميُّ ، ولا نبيَّ بعدي ـ قالها ثلاثاً ـ أوتيتُ فواتحَ الكَلِم وخواتمَه ، وعُلِّمتُ كم خزنةُ النار ، وحملةُ العرش . . » الحديث .

وروى أبو داود عن النبي ﷺ أنه قال : « أُذِنَ لي أن أُحدِّثَ عن مَلَكٍ من ملائكة الله تعالى من حملة العرش ، إن ما بين شحمة أُذنه إلى عاتقه مسيرةُ سبعمائة عام » .

وفي رواية الطبراني : « مسيرة سبعمائة عام خَفَقان الطير السريع » .

كما أنه ﷺ أطلعه الله تعالى على عالم الجنة والنار ، ومُثِّلتا له ، في عدة مناسبات ، ففي حديث المعراج : « ثم أُدخلتُ الجنة ، فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ ، وإذا ترابُها المِسك الأذفَر » .

كما أنه ﷺ أطلعه الله تعالى على عالم البرزخ وأحوالهم وشؤوناتهم ، وعالم الحشر ، وأحوال الناس فيه ، وعالم العَرْض ، وعالم الحوض ، وأخذ الصحف والحساب والميزان والصراط ، وأحوال أهل الجنة ، وأهل النار ، وحدَّث عن جميع تلك العوالم وفصَّل أمورهم ﷺ .

كما أنه ﷺ أطلعه الله تعالى على العوالم العلوية ، وما يجري بين الملأ الأعلى من الاختصام حول الكفَّارات والدرجات ، وتجلَّتْ له الأشياء كلها وعرفها ، كما في الحديث الذي رواه الترمذي وأحمد وغيرهما عنه ﷺ أنه قال : « إني قمت من الليل فصليتُ ما قُدِّر لي ، فنعَستُ في صلاتي

حتى استثقلتُ ، فإذا أنا بربي عز وجلَّ فقال لي : يا محمد فيمَ يختصم الملأ الأعلى ؟ قلتُ : لا أدري » وفيه أن الله تعالى أفاض على النبي ﷺ العلوم حتى قال : « فتجلَّى لي كل شيء وعرفت - وفي رواية : فعلمتُ ما في السموات وما في الأرض - وفي رواية الطبراني : فعلَّمني كلَّ شيء - وفي رواية له : فما سألني عن شيء إلَّا علمتُه - ثم قال لي : يا محمد فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت : في الكفارات والدرجات . . » الحديث (١) .

الوجه الثالث : عرضُ الأمم عليه ﷺ - وذلك أنه ﷺ عُرضت عليه الأمم كلُّها : الأمم قبله وأمته بعده ، ومثّلتْ له أمته ﷺ في عدة مناسبات ، وفي (الصحيحين) عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : « عُرِضتْ عليَّ الأمم ، فرأيتُ النبيَّ ومعه الرُّهَيْط (٢) ، والنبي ومعه الرجل والرجلان ، والنبيَّ وليس معه أحد ، إذْ رُفع لي سواد عظيم ، فظننتُ أنهم أمتي ، فقيل لي : هذا موسى ﷺ وقومه ، ولكن انظر إلى الأفق فنظرت ، فإذا سواد عظيم ، فقيل لي : انظر إلى الأفق الآخر ، فإذا سَواد عظيم ، فقيل لي : هذه أمتك ، ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب : هم الذين لا يَرْقون ولا يسترقون ، ولا يتطيَّرون - وفي رواية : ولا يكتوون - وعلى ربهم يتوكَّلون » (٣) .

---

(١) انظر تمام الحديث في كتابنا : « الصلاة في الإسلام » .
(٢) تصغير رهط ، وهي الجماعة دون العشرة .
(٣) وهذه رواية مسلم باختصار .

وروى الطبراني والضياء عن حذيفة بن أسيد أن النبي ﷺ قال : « عُرِضَت عليَّ أمتي البارحةَ لدى هذه الحُجْرة ، حتى لأنا أعْرَفُ بالرجل منهم من أحدكم بصاحبه ، صُوِّروا لي في الطين » .

الوجه الرابع : رفع الدنيا له وإراءته إياها : كما وأنه ﷺ رفع الله له الدنيا فنظر إليها .

روى الطبراني عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله قد رفع لي الدنيا ، فأنا أنظر إليها ، وإلى ما هو كائن فيها إلى يومن القيامة ، كأنما أنظر إلى كفي هذه »[1] .

ويشهد لهذا الحديث : ما رواه مسلم أن النبي ﷺ قال : « إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها . . » الحديث كما تقدم .

بل أراه الله تعالى جميع الأشياء ، كما روى مسلم وغيره عن أسماء رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال : « ما من شيء لم أكن أُريتُه إلاَّ رأيته في مقامي هذا ، حتى الجنة والنار . . » الحديث .

فعمَّت رؤيته ﷺ لجميع ما هنالك واطلع عليه .

الوجه الخامس من إظهاره على المغيبات : رؤيته ﷺ آثار الأمور الغيبية قبل وقوعها .

جاء في (الصحيحين) عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال : (أشرف النبي ﷺ على أطَم من آطام[2] المدينة فقال : « هل تَرَوْن

---

(١) انظر (شرح المواهب) .

(٢) الأطم : هو البناء المرتفع .

ما أرى ؟ » قالوا : لا .

قال : « فإني لأرى مواقع الفتن خلال بيوتكم كمواقع القطر » .

وفي (صحيح) مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في حديثه عن غزوة بدر قال : إن رسول الله ﷺ كان يُرينا مصارعَ أهل بدر بالأمس يقول : « هذا مصرع فلان غداً إن شاء الله تعالى ، وهذا مصرع فلان إن شاء الله » .

قال عمر : فوالذي بعثه بالحق ما أخطأ الحدود التي حدَّها رسول الله ﷺ . . الحديث .

وفي رواية لمسلم عن أنس فقال رسول الله ﷺ : « هذا مصرع فلان » ويضع يده على الأرض ها هنا وها هنا ، قال : (فما ماط أحدهم عن موضع يد رسول الله ﷺ) أي : ما جاوز الموضع الذي عيَّنه رسول الله ﷺ وأشار إليه .

الوجه السادس : انجلاء الأمور الغيبيَّة الخفية له ﷺ قبل ظهورها وإخباره عنها :

ومن ذلك ما روى الإمام أحمد وغيره أن النبي ﷺ بينما هو يخطب إذ عرض له في خطبته وقال : « يدخل عليكم من هذا الباب ـ أو من هذا الفجِّ ـ رجل من خير ذي يَمَن ، ألا إن على وجهه مَسْحة مَلَك » .

وفي رواية للطبراني : « يطلُع عليكم خيرُ ذي يمن ، عليه مسحة ملك » فطلع جرير بن عبد الله رضي الله عنه .

وروى الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه قال : كنا جلوساً مع

رسول الله ﷺ فقال : « يطلُع الآن عليكم رجل من أهل الجنة » فطلع رجل من الانصار تنطفُ لحيته من وضوئه ـ وفي رواية البيهقي : فجاء سعد بن مالك فدخل منه .. الحديث .

وعن مزيدة بن مالك قال : بينما رسول الله ﷺ يحدث أصحابه إذ قال : « يطلُع عليكم من هذا الفجِّ رَكْبٌ من خير أهل المشرق » .

فقام عمر فتوجَّه في ذلك الوجه فرأى ثلاثة عشر راكباً ، فرحَّب وقرَّب ، وقال : مَن القوم ؟ قالوا : قوم من عبد القيس .. الحديث[1] .

الوجه السابع : انكشاف الضمائر النفسية له ﷺ وإخباره بذلك :

روى الحاكم والبيهقي عن ابن عباس ، وروى ابن سعد عن أبي إسحاق السَّبيعي قالا : رأى أبو سفيان رسول الله ﷺ يمشي ، والناس يطأون عقبه ـ أي : يمشون وراءه ـ فقال أبو سفيان في نفسه : لو عاودتُ هذا الرجلَ القتال ، وجمعتُ له جمعاً ـ فجاء عليه الصلاة والسلام حتى ضرب في صدر أبي سفيان وقال له : « إذن نُخْزيَك » .

فقال أبو سفيان : أتوب إلى الله وأستغفر الله ، ما أيقنتُ أنك نبيٌّ إلا الساعةَ ، إني كنتُ لأحدِّث نفسي بذلك[2] .

---

(١) قال في (مجمع الزوائد) : رواه الطبراني وأبو يعلى ، ورجالهما ثقات ؛ وفي بعضهم خلاف ، وقال الزرقاني : سنده جيد ، وهذا الوفد وفد عبد القيس الوارد ذكرهم في (الصحيحين) .

(٢) انظر (شرح المواهب) ، وذلك يوم فتح مكة .

ومن ذلك : ما رواه الإمام أحمد في (مسنده) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قلتُ لرجل : هلمَّ فلنْجعلْ يومَنا هذا لله عزَّ وجلَّ ـ أي : نشتغل فيه بالعبادة ـ قال أبو موسى : فوالله لكأنَّ رسول الله ﷺ شاهد هذا اليوم ، فخطب فقال : « ومنهم من يقول : هلمَّ فلنجعل يومنا هذا لله عزَّ وجلَّ » فما زال يقولها حتى تمنَّيت أن الأرض ساخَت بي ـ أي : غاصت بي .

وقد روى الطبراني بإسناد رجاله رجال الصحيح ، وأورد أهل السِّيَر ، قصة عُمير بن وهب الجُمَحي ، لما تكفَّل له صفوان بن أمية بوفاء ديونه ، ونفقة عياله ، على أن يقتل رسولَ الله ﷺ ! وأسرّا ذلك بينهما ، ثم ذهب عمير متوشِّحاً سيفَه المسموم إلى المدينة ، فاستأذن على رسول الله ﷺ ، فأذِن له ، فقال له ﷺ : « ما جاء بك ؟ » .

فقال : جئتُ لهذا الأسير الذي في أيديكم .

فقال له ﷺ : « فما بالُ السيف في عنقك » ؟

فقال عمير : قبَّحها الله من سيوف ، فهل أغنَتْ عنا شيئاً ؟!

فقال : « اصدُقني ما الذي جئتَ له ؟ » قال : ما جئتُ إلا لهذا .

فقال له ﷺ : « بلى ، قعدتَ أنت وصفوان بن أمية في الحِجْر ، فتذاكرتما أصحاب القَليب من قريش ، فقلتَ : لولا دَينٌ عليّ وعيالي ، لخرجتُ حتى أقتل محمداً ! فتحمَّل صفوان لك بدَينك وعيالك على أن تقتلني ، والله حائلٌ بيني وبين ذلك » .

فقال عمير : أشهد أنك رسول الله ، قد كنَّا يا رسول الله نكذِّبك

بما كنتَ تأتينا به مِن خبر السماء ، وما ينزل عليك من الوحي ، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان ، فوالله إني لأعلم ما أنبأك به إلا الله ؛ فالحمد لله الذي هداني للإسلام .

وروى ابن سعد وغيره عن عبد الله بن أبي بكر بن حزم قال : خرج النبي ﷺ ، وأبو سفيان جالسٌ في المسجد ، فقال أبو سفيان في نفسه : ما أدري بمَ يَغلِبنا محمد ؟ فأتاه النبي ﷺ فضرب في صدره وقال : « بالله نغلِبك » فقال أبو سفيان : أشهد أنك رسول الله [1] .

وروى ابن هشام وغيره أن فَضالة بن عُمير بن الملوَّح همَّ أن يقتل رسول الله ﷺ ، وهو يطوف بالبيت ، عام الفتح ، فلما دنا من النبي ﷺ قال له ﷺ : « أفضالة ـ وفي رواية : يا فضالة » .

فقال : نعم يا رسول الله .

قال ﷺ : « ماذا كنت تحدِّث به نفسك ؟ » .

فقال : لا شيء ـ كنتُ أذكر الله .

فضحك رسول الله ﷺ ثم قال له : « استغفرِ الله » أي : مما حدَّثت به نفسك ، وقولك : لا شيء ـ ثم وضع رسول الله ﷺ يده على صدر فضالة ، فسكن قلبه ـ أي : ثبت فيه الإسلام ومحبة خير الأنام ـ فكان فضالة يقول : والله ما رفع يده عن صدري حتى ما خلق الله شيئاً أحبَّ إليَّ منه ﷺ .

---

(١) كذا في (شرح الزرقاني على المواهب) .

قال فضالة : فرجعتُ إلى أهلي فمررتُ بامرأةٍ كنتُ أتحدّث إليها ، فقالت : هلمَّ إلى الحديث ! فقال فضالة :

قالت : هلمَّ إلى الحديث ، فقلتُ : لا

يـأبى عـليَّ الله والإسـلامُ !
لـو مـا رأيتِ محمـداً وقَبيلَه
بـالفتـح يـوم تُكسَّر الأصنـامُ
لـرأيت دينَ الله أضحى بيِّنـاً
والشركُ يَغشى وجهه الإظلامُ (١)

الوجه الثامن : اطلاعه ﷺ على الأمور القلبية وإجابته السائل قبل سؤاله ، وهذا باب واسع جداً :

فمن ذلك : ما رواه الإمام أحمد عن وابصةَ بن مَعْبَد رضي الله عنه قال : أتيتُ النبي ﷺ وأنا أريد أن لا أدعَ شيئاً من البرِّ والإثم إلا سألتُه عنه فقال لي : « أُدنُ يا وابصة » فدنوت منه حتى مسَّتْ ركبتي ركبته .

فقال ﷺ : « يا وابصة أُخبِرك ما جِئتَ تسأل عنه أو تسألني ؟ » فقلت : يا رسول الله أخبِرني .

فقال ﷺ : « جئتَ تسألني عن البر والإثم » قلتُ : نعم .

فَجمع أصابعه الثلاث فجعل ينكُتُ بها في صدري ، وقال : « يا وابصة استَفْتِ نفسَك ، البرُّ ما اطمأنَّتْ إليه النفس ، واطمأنَّ إليه

(١) كذا في (شرح المواهب والإصابة) وغيرهما .

القلب ، والإثمُ ما حاك في القلب وتردَّد في الصدر ، وإن أفتاك الناس وأفتَوْك » .

الوجه التاسع : بشائره الغيبية ـ فعن عبد الله بن بُسْر قال : وضع رسول الله ﷺ يده على رأسي فقال : « يعيش هذا الغلامُ قَرْناً » فعاش مائة سنةٍ .

وكان في وجهه ثُؤْلول فقال : « لا يموت حتى يذهب الثؤْلول من وجهه » فلم يمت حتى ذهب الثؤلول من وجهه[1] .

ذكرى حول الآية المتقدمة : وهي قوله تعالى : ﴿ عالم الغيب ، فلا يُظهر على غيبه أحداً إلا مَن ارتضى من رسول ، فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رَصَداً ﴾ .

فإنه سبحانه بيَّن لعباده أنه هو الذي يعلم الغيب المطلق علماً ذاتياً لا نهاية له ، كما قال تعالى : ﴿ قل : لا يعلم مَن في السموات والأرض الغيبَ إلا الله . . ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ له غيبُ السموات والأرض . . ﴾ الآية .

وقال تعالى : ﴿وعنده مفاتِحُ الغيب لا يعلمها إلا هو . . ﴾ الآية .

وقد أخبر سبحانه في هذه الآية الكريمة أنه يُظهر على غيبه من ارتضى من رسول ، فيُطلعُه على ما شاء من الغيب حسب الحكمة الآلهية .

(١) قال في (مجمع الزوائد) : رواه الطبراني والبزار ورجال أحد إسنادي البزار رجال الصحيح غير الحسن بن أيوب الحضرمي وهو ثقة . اهـ .

فقد أطْلع سبحانه سيدنا عيسى عليه السلام على بعض المغيبات ، ليكون ذلك آية على صدق نبوته وحجةً على قومه ، قال تعالى : ﴿ وأُنبِّئُكم بما تأكلون وما تدَّخرون في بيوتكم إن في ذلك لآيةً لكم إن كنتم مؤمنين ﴾ .

فهو سبحانه يُطلع رسله عليهم الصلاة والسلام على ما شاء من المغيبات ، بمقتضى حكمته ، ليكون ذلك بيِّنةً على صدق نبوتهم ، حيث لم يكن ذلك بواسطة آلات ، ولا بتدخل أسباب عادية ، أو دلالة علامات عرفية ، بل بمجرد إنباء الغيب الإلهي .

ومن هنا يُعلم أن علم التنجيم ، وعلم الفلك ، وعلم الارصادات الجوية ، ونحوها من العلوم التي تُستنتج منها بعض المعلومات الخفية ، فإنها منوطة بأصولٍ علمية ، ومبنية على قواعد وضوابط عرفية عادية ، تُعطي تلك النتائج الخفيّة ، فلا يُقال : إنها من باب العلم بالمغيبات أصلاً ، إذ أن علم الغيب شرطه أن يكون مجرَّداً عن الموادّ والوسائط الكونية ، والأسباب العادية ، والعلامات العرفية ، كما نبّه على ذلك المحققون .

إذ لا يُقال للطبيب الذي يتعرَّف من مقياس النبض على قوة القلب وضعفه ، والذي يتعرَّف بجَسِّ المريض وفحصه الطبي على مرضه الخفيّ ـ لا يُقال : إن هذا من باب العلم الغيبي .

كما أن العالم الفلكي الذي يتعرَّف بالارصادات والمقاييس الجوية ، إلى التغيُّرات الحارَّة والباردة ونحوها ـ لا يقال إن ذلك من علم الغيب ! .

ثم إن قوله تعالى : ﴿ عالمُ الغيب فلا يُظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول . . ﴾ الآية : هذا لا يُنافي قولَه تعالى : ﴿ قل : لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب . . ﴾ الآية ، لأن المنفيَّ في هذه الآية هو علمُ الغيب المطلق المحيط بكل شيء ، والمعنى : لا أقول لكم إني أعلم الغيب المطلق المحيط بكل شيء : كلياً وجزئياً ، فإن ذلك لله تعالى وحده .

ومثل ذلك ما أخبر به الله تعالى عن نوح على نبينا وعليه الصلاة والسلام : ﴿ ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ﴾ الآية .

أو المراد : إني لا أعلم الغيب إلا أن يعلمني الله تعالى ، ويُطلعني على ما شاء من الغيب .

كما وأن قوله تعالى : ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول . . ﴾ الآية ، لا ينفي عن أولياء الله تعالى اطلاعهم على بعض المغيَّبات ، وذلك : لأنه إن أريد بـ **الرسول** في الآية الكرية : الرسول البشري - كما عليه الجمهور - فاطّلاع الأولياء على بعض المغيبات إنما حصل لهم باتباعهم لرسولهم ، وبواسطته يكرمون ، وحينئذ يكون ذلك داخلاً في الكرامات ، وكل كرامة لوليّ فهي معجزة لنبيِّه ، قد نالها باتباعه له ، صلوات الله على نبينا وعلى الأنبياء أجمعين .

وإن أريد بـ **الرسول** : الرسول المَلَكي - كما قاله بعضهم - فهو ينزل بالوحي النبوي على الأنبياء ، وينزل بالإلهام الصادق على قلوب الأولياء ، ويُلقي إليهم ويحدِّثهم .

وكيف يجوز إنكار اطلاع الأولياء على بعض المغيَّبات ، وقد ثبت ذلك في الأحاديث الصحيحة ؟! ومن ذلك ما ورد الصحيحين وغيرهما واللفظ للبخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ : « لقد كان فيما قبلكم مُحدَّثُون ، فإن يكن في أمتي أحد فإنه عمر » .

وروى البخاري أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ : « لقد كان فيمن قبلكم من بني إسرائيل يُكلَّمون من غير أن يكونوا أنبياء فإن يكن من أمتي أحد منهم : فعمر » .

قال في (فتح الباري) : والمحدَّث : هو من أُلقي في رُوعه شيء من قِبَل الملأ الأعلى ، فيكون كالذي حدَّثه غيره به ، وقيل : مكلَّم أي : تُكلِّمه الملائكة بغير نبوة ، وهذا ورد من حديث أبي سعيد مرفوعاً ولفظه : قيل : يا رسول الله كيف يحدَّث ؟ قال : « تتكلَّم الملائكة على لسانه » .

وقوله ﷺ : « فإن يكن من أمتي أحد فإنه عمر » : لم يَرِدْ مورد التردُّد ، بل هذا من باب التأكيد ، كما يقول الرجل : إن يكن لي صديق فإنه فلان ، يريد اختصاصه بكمال الصداقة ، لا نفي الأصدقاء عنه ، ولذا ورد في الترمذي عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال : « إن الله تعالى جعل الحق على لسان عمر وقلبه » . اهـ .

فهذه الأحاديث صريحة في إثبات الإلهام ، والتحدث عن المغيبات ، وفي سنن الترمذي وغيره عن أبي سعيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « اتَّقوا فِراسةَ المؤمن ، فإنه ينظر بنور الله ـ ثم قرأ : ﴿ إن في ذلك لآيات للمتوسِّمين ﴾ » .

وروى ابن جرير عن ثوبان مرفوعاً « احذروا فراسة المؤمن ، فإنه ينظر بنور الله ، وبتوفيق الله » .

وروى البزار عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « إن لله عباداً يَعرفون الناس بالتوسُّم » .

ومن ذلك قصة عثمان بن عفان رضي الله عنه لما دخل عليه الرجل وقد نظر إلى امرأة أجنبية ، فقال له عثمان : يدخل أحدكم علينا وفي عينيه أثر الزنا ! فقال الرجل : أَوَحيٌ بعد رسول الله يا أمير المؤمنين ؟ فقال له : لا ، ولكن فراسةُ مؤمنٍ صادقةٌ .

الدليل الرابع : من الأدلة على كثرة علومه ﷺ ـ علمه ﷺ بأصناف المخلوقات ، وأنواع أمم الحيوانات ، وبأحكامها وبأوضاعها وتفاصيل أمورها .

روى الطبراني بإسنادٍ رجاله رجال الصحيح عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : (لقد تركَنا رسولُ الله ﷺ وما في السماء طائر يطير بجناحَيْه إلاَّ ذكر لنا منه علماً[1]) .

وروى الإمام أحمد عن أبي ذر رضي الله عنه قال : (لقد تركَنا رسول الله ﷺ وما يُحرِّك طائر جناحيه في السماء إلاَّ ذكر لنا منه علماً) .

وزاد الطبراني في روايته أيضاً فقال النبي ﷺ : « ما بقي شيء يُقرِّب من الجنة ويباعد من النار ، إلا وقد بُيِّن لكم » .

---

(١) انظر (مجمع الزوائد) : الجزء الثامن ، وتفسير ابن كثير في مواضع منه .

فقد ذكر ﷺ للصحابة علماً كبيراً حول عالم الطير ، وفي هذا دليل على أنه ﷺ كان واسعَ العلم في نواحي أصناف العالم كله .

وأيضاً فيه دليل على أنه ﷺ بينّ جميع المهامّ الكونية ، المتعلقة بمصالح العالم وسعادة البشر ، من جميع الوجوه والاعتبارات ، فإنه ﷺ الذي تناول ذكر عالم الطير كيف يتصور منه أنه يُهمل بيان ناحية إصلاحية من نواحي المصالح البشرية ، ويترك ذكرها ، ويتناولُ ذكر عالم الطير وأحكامه ؟! لا - بل إنه ﷺ بينّ جميع النواحي الإصلاحية وطرق السعادات البشرية على أكمل وجوهها .

وقد روى أبو يعلى بإسناده عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله أنه قال : قَلَّ الجراد في سنة من سِني عمر رضيَ الله عنه التي ولي فيها ، فسأل عمر عن الجراد ؟ فلم يخبر بشيء ، فاغتمَّ لذلك ، فأرسل راكباً إلى كذا ، وآخرَ إلى الشام ، وآخر إلى العراق ، يسأل : هل رُؤي من الجراد شيء أم لا ؟ قال : فأتاه الراكب الذي من قِبل اليمن بقبضة من جراد فألقاها بين يديه ، فلما رآها كبَّر ثلاثاً ، ثم قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « خلق الله عزَّ وجلَّ ألف أمة ، منها ستمائة في البحر ، وأربعمائة في البرّ ، وأوَّل شيءٍ يهلِك من هذه الأمم الجراد ، فإذا هلكت تتابعتْ مثلَ النِّظام إذا قُطع سَلْكه »(١) .

وهذه الأحاديث بيانٌ لقوله تعالى : ﴿ وما مِن دابَّةٍ في الأرض ، ولا طائر يطير بجناحَيْه إلا أممٌ أمثالكم ، ما فرَّطْنا في الكتاب من شيء ، ثم إلى ربهم يُحشرون ﴾ .

---

(١) انظر هذا الحديث في تفسير ابن كثير وغيره .

وقد بيَّن النبي ﷺ ما يترتَّب على حشرها المخبر عنه في هذه الآية ، وما يجري بينها من القصاص يوم القيامة .

ففي (صحيح) مسلم والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لتُؤَدُّنَّ الحقوقَ إلى أهلها يوم القيامة ، حتى يُقاد للشاة الجَلْحاء ـ أي : التي لا قرن لها ـ من الشاة القَرْناء » .

ورواه أحمد بلفظ : إن رسول الله ﷺ قال : « يُقْتَصّ للخلق بعضِهم من بعض ، حتى للجمَّاء من القرناء ، وحتى للذرَّة من الذرَّة » . قال الحافظ المنذري : ورواته رواة الصحيح . اهـ .

فالطير أمَّة من الأمم ، والنمل أمَّة من الأمم ، كما ورد في (الصحيح) : « قرصَتْ نملة نبياً من الأنبياء ، فأمر بقرية النمل فأُحْرِقَتْ ؛ فأوحى الله إليه : أنْ قرصتكَ نملة ـ أهلكتَ أمةً من الأمم تُسبِّح ! » .

والنحل أمة كما أخبر سبحانه : ﴿ وأوحى ربك إلى النحل أنِ اتخذي من الجبال بيوتاً ، ومن الشجر ، ومما يعرِشون . . ﴾ الآيات .

والمراد بالأمة هنا : صنفٌ من المخلوقات ذات نظام في حياتها ومعاشها وتناسلها ، وذات انتظام في مجتمعها ، فمنها الآمر والمأمور ، إلى ما هنالك .

قال تعالى : ﴿ قالت نملة : يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطِمنَّكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون ﴾ .

فلما أراد سليمان عليه الصلاة والسلام أن يمرَّ بجنوده نادت قائدة

النمل ورئيستهم ـ نادتهم فأمرتهم أن يدخلوا مساكنهم مخافةَ أنْ تطأهم أقدامُ الجيش ، وبيّنتْ لهم أنهم إذا لم يدخلوا المساكن فسوف تَطؤهم الأقدام ، ويكون الجيش معذوراً في ذلك ، لأنهم لا يشعرون بأن النمل تحت أقدامهم .

هذا ، وإن بحار علومه ﷺ لا يُحيط بها إلا الله تعالى الذي أفاضها عليه ، وقد جاء في (الصحيحين) وغيرهما ـ واللفظ للبخاري ـ عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ خرج حين زاغت الشمس ، فصلى الظهر ، فلما سلَّم قام على المنبر ، فذكر الساعة وذكر أن بين يديها أموراً عظاماً ثم قال : « مَن أحبَّ أن يسأل عن شيء فليسأل عنه ، فوالله لا تسألوني عن شيء ـ أي : عن أيِّ شيء كان ـ إلا أخبرتكم به ما دمت في مقامي هذا » .

قال أنس : فأكثر الأنصارُ البكاء ، وأكثر رسول الله ﷺ أن يقول : « سلوني » .

فقال أنس : فقام رجل فقال : أين مدخلي يا رسول الله ؟ قال : « النار » .

فقام عبد الله بن حذافة : فقال مَنْ أبي يا رسول الله ؟ قال : « أبوك حذافة » .

ثم أكثر أن يقول : « سلوني ، سلوني » فبرك عمر على ركبتيه فقال : رضينا بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد ﷺ رسولاً .

قال : فسكت رسول الله ﷺ حين قال عمر ذلك .

ثم قال رسول الله ﷺ : « والذي نفسي بيده لقد عُرِضتْ عليَّ الجنة والنار آنفاً في عُرْض هذا الحائط وأنا أصلي ، فلم أرَ كاليوم في الخير والشر » .

فقد أذن ﷺ للصحابة أن يسألوه عن أيّ شيء بدا لهم ، ما دام في مقامه ذلك ، وفي هذا أكبر دليل على سعة علومه التي علَّمه الله تعالى إياها ﷺ ، قال الله تعالى : ﴿ وعلَّمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً ﴾ .